علاقة الآباء بالأبناء

بقلم المربية الفاضلة

الآنسة زينب الحكيم

بينا فى مقالنا السابق الرابطة بين الآباء وأبنائهم من الناحية الطبيعية والعقلية والانفعالية والاجتماعية ، بحيث لم يبق هناك شك فى صحة وجود تلك الروابط ؛ على أنه قد يكون من السهل أن نتكلم عن هذه العلاقات ونثبت وجودها ، دون أن نقدر قيمها الحقيقية كعوامل أولية هامة فى توثيق الصلات بين الآباء والأبناء ؛ ولقد يكون من العسير أن نرى كيف تدوم تلك العلاقات صحيحة ، مع استمرار محاولة العمل على تقويتها وعدم فصم عراها .

فإذا آمنا بأن العلاقات بين الآباء وأبنائهم تتكون بواسطة الاتجاهات النفسية العديدة ، وأن كل اتجاه أو ميل نفسى يشتمل على تجارب عدة ، لأيقنا أن كلاً من الآباء والأبناء يتأثر بوحدات ومجموع التجارب التى تحصل بينهما .

كيف تنمو الاتجاهات ؟

الميزات العقلية والطبيعية المختلفة تؤهل كل طفل لتجارب مختلفة ، والتجارب المختلفة هذه تنشىء اتجاهات وميولاً مختلفة أيضاً .

وبما أن كل إنسان له نشاطه الذاتى ، فإن كل نشاط يشترك فيه الآباء وأبناؤهم هو تجارب مشتركة ، وعلى هذا الاعتبار ، فالتجربة معناها عمل ، وكل شىء يعمل له نتيجة ، ونتيجة هذا العمل إما شعور إقناع أو عدم إقناع .

ونتيجة كهذه إما أن تقوى أو تضعف العلاقات الأبوية والبنوية . فإذا كانت النتيجة شعور اقتناع فكل فريق يتمنى تكرار نفس العمل ، أما إذا كانت العكس فإننا نتحاشى إعادته . وهنا نلاحظ أن نشاطنا يقوى أو يضعف تبعاً لشعورنا الخاص نحو كل شىء نعمله .

فإذا رغبنا فى تكرار عمل واحد عدة مرات ، فيمكننا أن نقرر — دون أدنى تردد — أن اتجاهاً خاصاً قد نما نحو ذلك العمل .

مثال ذلك : إن ميلك نحو شخص خاص أو نحو شىء معين ، توضحه أفعالك بالنسبة لهذا الشخص أو ذلك الشىء .

فمثلاً لو قابلت شخصاً لأول مرة ، وشعرت بشعور متنافر نحوه ، فإنك تتجافى لقاءه مرة أخرى . ولقد تصرح بأنك لم تحب هذا الشخص ، (وأنك أحسست أنه ثقيل الظل عليك) ، وإذا تكرر شعورك هذا كلما رأيت نفس الشخص فإن ميلك إليه يكون ميل عدم صداقة ، واتجاهك نحوه اتجاه عداء ، فتعمل على مقاطعته كلما استطعت ذلك . فإذا كان ولا بد من مقابلته (كأن يسبب لكما المقابلة اجتماعكما فى بيئة واحدة أو مكان واحد لضرورة عمل أو مصلحة مثلاً) ، فإن علاقتك الاجتماعية تختلف كل الاختلاف عن علاقتك برجال ونساء آخرين تكون علاقتك بهم علاقة صداقة .

انظر إلى الطفل الذى يرسم شيئاً بسيطاً ، ويرى أن رسمه هذا يسر والديه على حقارته ، فإن الطفل يتشجع بهذا الشعور ويستمر يرسم مهما كان فى ذلك من مشقة عليه ، فإذا لحظ أن محاولاته نجحت فى اجتذاب رضاء والديه فإنك ترى ميلاً قوياً للرسم ينشأ بوضوح فى الطفل خصوصاً إذا كانت له موهبة الفن . وقياساً على هذا نرى أن الاتجاهات النفسية هامة جداً فى حياة الأفراد والجماعات حيث إن كل اتجاه أو ميل يتبع دائماً بعمل من أى نوع ، حتى ولو كان هذا العمل مجرد قرار لا ينفذ مطلقاً .

والقرار الذى لا ينفذ فى حالة الأشخاص البالغين يمكننا اعتباره شدة حرص منهم . ولكننا نعتبره فى حالة الأطفال الصغار ، عناداً أو إهمال واجب أو عدم انتباه .

كيفية انماء الصلات :

عرفنا أن الصلات بين الآباء والأبناء نشأت فى الطفل منذ ولادته ، ويصح للمرء أن يسميها عادات عملية ، أو عادات عمل الأشياء ، أو طرق عمل الأشياء . وهناك مئات الأشياء التى يعملها كل طفل يومياً ، فتنشأ هناك مئات الميول المطابقة لتلك الأعمال ، فهناك الاتجاه نحو الغذاء والنوم واللعب والمشى والكلام والطاعة والصداقة ومشاركة العواطف والحب والشعور المتين .

ويشترك فى تكوين كل هذا جميع أفراد الأسرة الواحدة ، وهذه الاتجاهات عوامل قوية فى تربية الطفل ، فهى التى تشكل الأسرة والعلاقات الإنسانية ، وهى القوى الفعالة فى حياة كل مخلوق إنسانى .

وهذه الاتجاهات هى أسس جميع الأعمال الإنسانية المتوطنة ، والعلاقات الإنسانية الضرورية ، ومع هذا فنلاحظ أن الوالدين أكثر ميلاً إلى الإهمال من حيث التجارب التى يعرضان أبناءهما لها يومياً ، من وقت ولادتهم إلى سن البلوغ .

ومن الغريب أنهما لا يفهمان أو لا يريدان أن يفهما أن الاتجاهات التى نشأت فى أبنائهما هى دعامات الصلات التى كوناها بين نفسيهما وبين أبنائهما .

وكثير من الآباء يظنون أنه يمكنهم أن يكونوا أصدقاء لأبنائهم دون اعتبار صلات الصداقة التى تمت بينهم وبين أبنائهم بنفس الطريقة التى تنشأ بواسطتها علاقاتهم مع أى إنسان يصادقهم.

ولكن الطفل لابد خاسر بالنسبة لعلاقة كهذه ؛ لأنه عديم الخبرة ناقص التكوين ؛ غير مستكمل النمو الجسمى والعقلى ؛ أما الوالدان فكاملا النمو ، لهما خبرة ودراية بشئون الحياة تمكنهما من فهم مالم يفهمه الطفل بعد ، كما أن لهما قدرة على الطفل الصغير ، فهما لذلك يعرضانه للتجارب المختلفة .

وما لم ينتبه الوالدان إلى ماسيعود على الطفل من تلك التجارب ، فمن الممكن أن ينميا فى الطفل اتجاهات مخالفة لما أرادا أن ينميا فيه .

الفتاة «سعاد» وعمرها اثنتاعشرة سنة ، لحظ عليها الهدوء الشديد ، والكتمان لأفكارها ، ولم تحادث والديها فى شئونها الخاصة ، الأمر الذى أقلق أمها واضطرها إلى المجاهرة بأن الآباء يجب أن يكونوا خير أصدقاء لأبنائهم .

وسعاد هذه لازمتها دائما مربية كانت يقظة من حيث إرشادها إلى عمل أشياء مختلفة ، ولكنها لم تشجعها مطلقاً على إبداء رغبتها فى الأشياء التى تريدها ، بل كانت دائماً تعنفها على أقل الهنات التى تصدر عنها دون أن توضح لها كيف أتلفت تلك الهنات الأشياء التى كانت تعملها ، مما جعل سعاداً تصل إلى حكم قاطع بأن كل شىء تعمله إما أن يوافق أو لا يوافق عليه ببالغون ، تبعاً لميولهم الخاصة وحالاتهم النفسية .

وكان والدها رجلا كثير الأشغال ، ولم يكرس شيئاً من وقته للتحدث إليها ، وكانت أمها مقتنعة بالقاعدة « الأطفال ترى ولا تسمع » ، ولم تصرف أى جزء من وقتها معها أثناء الخمس سنوات الأخيرة من عمرها ، على أنها شعرت برغبة ملحة فى مصادقتها وهى فتاة ، ولكن تلك الأم قد نسيت أن إنماء روح صداقة مع ابنتها يستلزم تجارب صداقة مستمرة ، بحيث تضمن رضاء الطرفين وتسترعى انتباه كل منهما ، وبحيث يتكون ميل صداقة وتعاون وتفاهم ، ينمو بممارسته فى المشاكل اليومية حتى يؤثر فى حياة الفتاة .

من أجل ذلك نصحت الأم أن تعمل كل ماتستطيع لكى تمضى بعض الوقت مع ابنتها كل يوم ، حتى يتسنى لهما الحصول على تجارب سعيدة معاً ، وتكون هذه التجارب مثل المشى البسيط حول الحديقة ، أو الجلوس فى مكان معاً للتحدث الظريف أو ما شاكل ذلك . . . . .

ولكن الأم لم ترقها هذه النصيحة ، وقالت إن مثل هذه الأشياء «ينقص من سلطانها على ابنتها» ويدعو إلى عدم حفظ مركزها ، وأشارت إلى أن كل ماتريده « صداقة بدون منح السكافة

بينهما » ، واستمرت المشادة بين الأم وابنتها إلى أن تنزلت الأم ، ففهمت ان هناك فرقاً عظيما بين مجرد المعرفة ، والصداقة أو المرافقة .

وبعد سنتين من هذا التاريخ قالت الأم « إنى أعجب إذا كنت سأستطيع تعويض هاتيك الخمس سنين التى أضعتها فى جفاء مع ابنتى ، ولقد وجدت أنى ملزمة بإيجاد شعور حقيقى من المودة والصداقة بيننا ، وأيضاً كان لزاماً على أن أزيل من ذهن ابنتى شعورى الجمود والقسوة اللذين جعلاها قليلة الفهم عديمة الاهتمام بالأفراد الذين فى بيئتها » .

تأثير الوالدين فى أبنائهم :

بما أنه يشترك فى إنتاج الطفل فردان (هما أمه وأبوه) فلهما عليه تأثير كبير من حيث توجيه ميوله ، فهما معاً يعرضانه لأنواع من التجارب الخاصة المحددة ، وأحياناً بينما نجد أحدهما أكثرهما للطفل وأرأف به ، نجد الآخر شديد النقد له ، ضيق الخلق معه ، كثير الجفاء له .

وغالباً يظن هذا الأخير أنه لايقابل من الطفل بمثل مايقابل به الجانب الأول ؛ وذلك لأنه متلـكىء مع الطفل أو كثير الشفقة به ، ويسبب هذا الشعور إخلال التوازن بين الوالدين . وهذه الحالة من أشد العوامل إنتاجاً لفشل الترابط العائلى .

فالطفل عند مايحاول إطاعة أوامر والديه ، يشعر دائماً بأنه ملزم بتطييب نفس ذلك الوالد وتهدئة نفس تلك الأم خوفاً منهما،وخشية غضبهما ، بدل أن يقبل على تنفيذ أوامرهما برغبة، وطمعاً فى تعلم طرق عمل الأشياء منهما، ظناً منه أنهما على حق فيما يأمرانه به .

لذلك نرى الطفل يتعود جملة عادات خلقية منحطة كعدم الإخلاص ، والكـذب . وأمثال هؤلاء الأطفال من بنين وبنات هم الذين ينشئون سىء الحظوظ : لا اعتماد لهم على أنفسهم ، بل تتأثر أفـكارهم وأعمالهم برأى آخر فرد يتحدث إليهم ، وأمثال هؤلاء لايوثق بكلامهم ويشك فى إخلاصهم وولائهم ، ونحزن على اعتراضهم فى الحياة،ويستحقون منا الإشفاق بهم .

محبة الأطفال وأهمية استعمالها بحكمة :

إن إنماء العلاقات الانفعالية فى الطفل أمر له أهميته وخطورته ؛ ومن الضرورى أن يتعلم الطفل كيف يحب ، إلى جانب مايتعلم من باقى الأشياء الضرورية فى الحياة . وإن معرفة نوعية وكنه الحب الأبوى لمن أهم الأمور،لأن ذلك ضرورى جداً فى حالة تشكيل وصقل الرابطة الانفعالية بين الآباء والأبناء . لذلك يلزمنا تمييزما إذا كان حبهما أنانياً أو غير أنانى ، إن كان حباً تتجلى فيه المقدرة على فهم الطفل والعمل على إرشاده وتـكوينه ليحتل مكانه الطبيعى فى

الحياة أم عكس ذلك ، إن كان حباً يحيط الطفل كعضو من البشرية جمعاء لا تابعاً لأسرة خاصة أو العكس .

وكيف ينمو حب كهذا ؟

هل ينمو بواسطة الملامح الدالة على المحبة في أبسط مظاهرها ، كتدليل الرضيع ، ومداعبة الطفل ، وتشجيع الصبي ؟ ! وهل تنمو عاطفة الحب هذه ومشاركة العواطف عندما يبدأ احتياج الطفل للإيضاح عن مكنونات نفسه بطرق ربما لا يستطيع الوالدان فهمها ؟ !

وهل نوعية حب الوالدين من النوع الذي يستطيع إنماءه مربيات أولادهما إلى علاقة صداقة بينهما إذا ما كبر الأطفال وصاروا غلماناً ؟ ! وهل تستطيع المربيات إنماء مواهب الأطفال الطريفة دون تسليط أفكارهن الخاصة عليهم . ؟ !

سواء أكان هذا أم ذاك فإنه يجب على الآباء أن يمكنوا أبناءهم من مواجهة الحقائق وجهاً لوجه ، وأن يعلم هؤلاء الآباء أنهم تابعون للماضي وأطفالهم مهيئون للمستقبل ، وأن الآباء يرون الحياة في ظل الماضي ، أما أطفاله فيرون دائماً ممكنات المستقبل .

وحب الآباء يجب أن يقوى دائماً بفهم كيفية تربية الطفل والأخذ بيده وفق طبيعته واحتياجاته ومؤهلاته ، حتى يمكنه التصميم على الخطة التي يجب أن تعقد عليها صلاتهم السليمة .

والآباء الذين يتوصلون إلى فهم ذلك يصبح لزاماً عليهم ألا يبتسموا أو يشجعوا الأعمال التي تصدر عن الطفل وعمره ثلاث أو أربع سنوات كأعمال مضحكة أو وقحة دون قصد ، فإنهم لن يسمحوا لهم بعملها إذا ما بلغوا السادسة والسابعة من أعمارهم ، ولا بد أن يقدروا أنهم لن يستطيعوا منعهم منها إلا بالعقاب .

وهنا يجب أن يرسم الآباء خطة حكيمة لتربية أبنائهم ، يكون ضمن برنامجها ألا يسمحوا لأنفسهم بتشجيع ما يستملح من صغارهم وهم صغار أبرياء وقع منهم وهم كبار ويعقلون ، وفي ذلك من اقتصاد النشاط والجهود والمشاق الشيء الكثير .

أما إذا اتبع الطريق الهمجي في تربية الأبناء كما هي الحال الآن ، فإن ذلك يكون من الخطر العظيم والخطل البين في حفظ صلات المحبة والمودة بين الآباء وأبنائهم ، إذ تبعاً لذلك يظل الطفل محتاجاً إلى الرعاية بقدر ما يشعر بالحيرة الدائمة .

وليس شعور محبة الآباء بأكثر أهمية من أغراضهم نحو أبنائهم ، فإنه ـ كما قدمنا ـ توجد الاتجاهات ، وتنمو الميول بواسطة التجارب اليومية ، ولكن هل هذه الاتجاهات وتلك الميول هي التي تعلم الطفل قيم ألوان الحياة المختلفة وشئونها ؟ ! إنها لكذلك ، خصوصاً بالنسبة للوالدين

والأشقاء ، والشقيقات ، والأصدقاء ، وفى حالات اللعب والعمل ، وبالنسبة للحيوان والفن والدين والرغبة فى علم مالم يعلم ، وفهم معنى مالم يفهم ، وكل هذا يتوقف نموه وتكوينه على مرمى الحب الأبوى .

وهن العلاقات بين الآباء والأبناء:

كلما اعترضت الوالدين صعوبة معينة بالنسبة لسلوك أحد أطفالهما ، فهذا دليل واضح على أن العلاقة بينه وبينهما ليست مرضية ، وبذلك لم يتمكنا من الوصول بابنهما إلى الغاية التى قصدا إليها ورغبا فيها . وبالنظر إلى هذا الإخفاق ، كثيراً مايصرح الوالدان ، بأن سلوك ابنهما غير مرض ، فهو عنيد ، مخالف للاوامر ، لا يوثق به ، وهو متلف ومشاغب ، يذكران هذا دون استحياء أو خجل من تصيهما لعجزهما عن تحويل سلوكه هذا إلى سلوك آخر أفضل منه .

ومن المدهش أنهما لا يفطنان إلى أن هذا الإخفاق سببه ضعف العلاقات بينهما وبين طفلهما . لذلك كان حتما علينا أن ننظر إلى المشاكل السلوكية فى الأطفال كما ننظر فى كل مشاكل العلاقات الإنسانية .

ولقد نلحظ المرة بعد المرة ، أن أحد الآباء لا يجد صعوبة ما فى اكتساب معاونة ومشاركة طفله ، ولقد يقرر هذا الوالد أن طفله مطيع ولطيف ، فى حين يقرر الآخر أنه لم يستطع اكتساب معاونة ومشاركة طفله لأنه مخالف عنيد وخشن ، ووالد آخر يستطيع كسب ثقة الطفل وصداقته ، وآخر يجده جافياً له ومقاوما لإرادته .

وكثيرا ما نسمع بعض الآباء يقولون : « عندى أربعة أطفال ، لم تعترضنى صعوبة ما مع ثلاثة منهم ، أما رابعهم (فكلهم) ؛ فهو يختلف عنهم كثيراً لشدة عناده ، وعبوس وجهه ومخالفته ، ثم إقوى الرأس لدرجة تحير ، ولاأدرى ماذا أصنع معه ، وترون أننى غير متعب مع باقى أطفالى ، وبذلك لا يستطيع أحد أن يقول إننى لا أفهم عن تربية الأطفال شيئاً »

بناء على أمثال التصريح المتقدم ، يكون من الصعب دائماً إقناع أمثال هؤلاء الآباء بأن أشباه الطفل الرابع هذا ، إنما يرجع عبوسه وعناده إلى التجارب التى عرضه والداه لها ، مما أدى إلى تكوين هذه الميول والعادات عنده .

ونسمع كثيراً فى هذه الأيام ، عن الاختلافات الفردية عند الأطفال . على أننا لا نقنع نفسنا بأن هذه الاختلافات تعرض الأطفال لتجارب متعددة ، مما يعمل على ازدياد مشاكلهم وتعقيد حياتهم ، أكثر مما يعود عليهم من اكتساب المنافع والخبرة ، لعدم رعايتهم وحمايتهم الكافيتين أمام هذه التيارات السريعة المتواصلة ، فى عصر مركب كالعصر الذى نعيش فيه

وفى هذه الحال نرى ضرورة سن خطة حكيمة لتربية الأطفال فى الأسرة ، وليس معنى هذا أنه يجب على الوالدين اتباع شكل خاص من التربية لكل طفل على حدة فى الأسرة الواحدة ، وإنما معناه أن يلجأ إلى الخطة المرسومة كمثل أعلى للتربية فى هذه الأسرة ، وإنما تمنح هذه التربية بتنوع ، بحيث تفى بحاجات الأطفال كل بحسب ما يناسبه .

الطفلة « فريدة » ولها من العمر عشر سنوات ـ أحضرت إلينا ، لأنها أخفقت فى أعمالها المدرسية ، ولم تكن مبتهجة بالألعاب ، وكانت تغار من أخيها البالغ الحادية عشرة من العمر ، وكانت لا تطيع والدتها ، لأنها لم تنتبه لما كانت تكلف بعمله ؛ فكانت فى نظر والدتها ، من الأطفال غير المرضى عنهم .

فلما حادثنا فريدة وسألناها عن الأشياء التى تحب أن تعملها ، قالت « لا أعرف شيئاً عن الأشياء التى أحب أن أعملها » ، ولم تظن أن هناك شيئاً بل أشياء تستطيع عملها جيداً . وبعد أن ترددت فريدة عدة مرات على المعمل التجريبى ، وشعرت باطمئنان ، وروح صداقة ، وجدت من نفسها رغبة لعمل أشياء كثيرة ؛ بل لقد أحست أنها عملت أشياء كثيرة فعلاً ، ولكنها تطمع فى أن تعمل أحسن من هذا كله ، لدرجة أنها ختمت حديثها معنا باقتراح حضورها مبكرة إلى المعمل ، لكى ترتب بعضاً من الكتب ، وتنقل بعض المحابر من القماطر .

هنا ظهر من حال فريدة أنها فتاة حساسة للغاية ، وأن عندها قوى عقلية ممتازة ، واتضح أن المشكلة لابد أن تكون فى ناحية أخرى . وبعد أسبوعين ، جاءت الأم فجأة إلى المعمل لتستعلم عن سبب ترك فريدة المنزل مبكرة عن الميعاد المحدد ساعة كل يوم بحجة أنها يجب ألا تتأخر عن عملها ! ! فلما اخبرت عن الحالة التى وصلت إليها فريدة أبت أن تصدق ما سمعت أذناها ، وظلت على اعتقادها ، وهو أن فريدة أصبحت شديدة الشوق للذهاب إلى المعمل ، كما اعتقدت أنه لا بد يوجد شخص فى المعمل كرس كل وقته لملاحظة ابنتها وتحرضها على العمل ، وارتابت كثيراً فى أن فريدة لم تشغل وقت أى شخص بالمعمل ، وأنها لم تراقب مطلقاً ، وأنها تبرعت من تلقاء نفسها بالحضور مبكرة عن عادتها .

وهنا اتضح أن الأم من فريق الأمهات النكدات القلقات ، وأنها لم تكلف نفسها مشقة تعليم فريدة كيفية عمل أى شىء ، كما أنها لم تسمح لها بوقت كاف لتأدية أى عمل بل عوضاً عن ذلك انتهرتها دائماً ، وانتقدتها وقارنتها بأخيها الهادىء الطيع ، الطيع لأوامرها ، والذى نشأ على أن يكون رجلا ، ولو أنه ما زال فى عهد طفولته . وكانت الأم دائمة الشكاية من وجع الرأس ، كما انتظرت من « فريدة » أن تقوم بأكثر مما تستطيعه من الأعمال المنزلية : واتضحت

الحقيقة ، وهى أن فريدة كانت تؤدى أعمالا منزلية أكثر مما تستطيع أداءه فتاة فى عمرها . وظهر أن عدم خبرتها واحتياجها إلى الإرشاد والمران سبب النزاع الدائم بينها وبين أمها ، كما سبب هذا الشقاق ذاته شدة حساسية فريدة ، بحيث جعلها تخطىء كثيراً فى عملها إذا ما أحست أنه غير مرض .

من ذلك نرى أنه يجب على الوالدين أن يفهموا طبائع أبنائهم، فإن هذا هو السبيل القويم الذى يجب أن يسلكه الآباء حتى يأمنوا على أطفالهم من التجارب التى يعرضونهم لها، بحيث ينمون أصحاء الأجسام ، سليمى العقول والأخلاق .

والتجارب التى يشارك الآباء أبناءهم فيها توجد حالاته، إما أن تكون تعليمية مساعدة، وإما أن تكون متلفة ضارة فى تربية أى طفل . فإذا كان سلوك طفل غير مرض ، فيلزمنا قبل كل شىء أن نختبر التجارب التى ملأت حياته، وإذا أردنا تغيير سلوكه، فلنغير تجاربه أولاً ولنزل ما يكون منها عائقاً لتكوين اتجاهات وميول نافعة فى التربية ،

ولنستبدل بالميول الأقل نفعا ميولاً أخرى تنمو قوية حسنة . فإذا جعلنا ذلك غرضنا فإننا نهض بالتربية التكوينية، عن طريق العلاقات الصالحة بين الوالدين وأبنائهم .

زينب الحكيم

مخاطرات الشباب

رواية مصرية حافلة بالعواطف النبيلة والمفاجآت العنيفة

تجمع إلى الحب العذرى تحليلاً دقيقاً لأهم خوالج النفس الشريفة

بقلم الأديب : حسن رشاد بمعهد التربية

منقحة ومصدرة ببحث فى أدب القصة وتطورها بقلم صاحب « المعرفة »

صفحاتها (٢٠٨) وثمنها (٥) خمسة قروش مصرية

تطلب من المؤلف أو من إدارة « المعرفة »